قصة عنترة كما ألّفها القُصَّاص

قصة عنترة كما ألّفها القُصَّاص

تعد رواية عنترة الشعبية المتداولة أعظم الروايات العربية وأطولها ، بكثرة ما حشد فيها من حوادث ، وما صوّر فى ثناياها من وقائع وأحداث ، وما بث فى صفحاتها من أشعار ، منها ما أثر عن عنترة وأكثرها ملفق مصنوع ، تظهر فيه الركاكة ويفشو الافتعال ، وقد اقتضاه سياق القصة وسردها ليس غير !

وقد نالت هذه الرواية المشهورة – وما تزال – حظوة فى أوساط عامة الناس وجماهيرهم ، فهى محور أسمار الكثيرين ، يشغفون بما حفلت به من مواقف الفروسية والطراد ، وبما تبثه من ضرام العواطف ونزعات الوجدان ، وما تعرض له من صور الفخار وأنباء الحروب والغزوات ، التى إن يكن لبعضها سند من الواقع وركاز من الحقائق ، فإن أكثرها موضوع واضح الاختراع للترويح عن النفوس ، وإشباع بعض النزعات ، وملء الفراغ الزمنى عندما لا يجدون كيف يقضون أوقات الفراغ من طوائف العامة وبعض طبقات الشعب .

أما واضع قصة عنترة الشعبية ، فهو يوسف بن إسماعيل شيخ القصاص على الإطلاق فى عهد العزيز بالله الفاطمى ، وكان عصر الفاطميين بمصر عصرًا ازدهرت فيه القصص ، إذ وجد فيها الفاطميون وسيلتهم لاستدرار عطف النفوس ، وأجتلاب مودة الناس لهم ولشيعتهم باعتبارهم من أهل بيت النبوة[1] .

ويقال إن سبب وضع قصة عنترة فى عهد العزيز بالله الفاطمى وخلافته بين عامى ٣٦٥ و ٣٨٦ ، أنه حدثت ريبة فى دار العزيز تلاقفتها الألسن ، ولهجت بها الناس فى المنازل والأسواق ، وللناس آذان تحب اللغط ، وآناف تتشمم أسرار الدور والقصور ، فساء ذلك العزيز وأوعز إلى الشيخ يوسف أن يشغل الناس بما عسى أن يصرفهم من شائق القصص عما حدث من ريبة ، وكان الشيخ يوسف واسع الرواية ، عظيم الدراية بأخبار العرب وأيامهم وحروبهم ووقائعهم ، كثير النوادر والأحاديث ، وكان ممن رووا عن أبى عبيدة ، ونجد بن هشام ، وجهينة اليمانى الملقب بجهينة الأخبار وغيرهم من الرواة ، فأخذ يكتب قصة عنترة ويوزعها على الناس فأعجبوا بها إعجابًا شديدًا ، وأخذوا بما أبرزها فيه من رونق خلاب وتسلسل للحوادث ، وقد قسمها سبعين كتابًا ، وحرص على أن يشغف القارئ حبًّا بمطالعة الكتاب الذى يلى ما قرأه ، إذ يوقفه عند معظم الأمر الذى يشتاق القارئ للوقوف على تمامه والوصل إلى خبره ، مجتزئًا الكلام عند ذلك الحد ، فلا يفتر عن طلب الكتاب الذى يليه ، وهكذا دواليك كما هو الحال فى كتاب ألف ليلة وليلة ، وكما يفعل بعض الكتاب المعاصرين ،

(١) جورجى زيدان / تاريخ آداب اللغة العربية . .

وبعض المجلات التى تنشر القصص المتسلسلة بغية اجتذاب اهتمام القراء والحصول على رواج المجلات .

وقد حاول الشيخ يوسف أن يثبت فى هذه الكتب ما ورد من أشعار العرب المذكورين فيها ، ولكن كثرة تداولها وتعدد نسخها أفسد روايتها ، وجعلها عرضة للمسخ والتشويه وتحوير الشعر وتحريفه ، كما شجع على اصطناع بعض ما بث فيها من أشعار لم ترو عن عنترة ، ولا عن الذين نسبت إليهم ، وإنما أضيفت إلى القصة من خيالات النساخ ورغبتهم فى التزويد والتظرف ، والحصول على رضاء العامة وتملق رغباتهم ، وتلك آفة الكتابة والكتاب[١] .

كما أن الشيخ يوسف نسب هذه القصة إلى الأصمعى تعظيمًا لشأنها .

وقيل أيضًا : إن واضع هذه القصة هو الشاعر الطبيب أبو المؤيد محمد بن الصائغ الجزرى ، وممن قال بهذا الرأى الأستاذ كوسين برسيفال الذى طبع لهذه السيرة ملخصًا فى باريس ، وقد ذكر ذلك فى المجلة الآسيوية سنة ١٨٣٣ وسنة ١٨٤١ .

وتعد قصة عنترة ملحمة حماسية من ملاحم العرب ، وقد بنيت فى معظمها على حادثة داحس والغبراء التى تقدم الكلام عنها آنفًا والتى استعرت لظى الحرب فيها بين قبيلتى عبس وذبيان ، ثم كانت محورًا لقصة « عنترة » فذكرت فيها رجولته وبطولته ، وفصاحته وزكانته ، وكرمه ونجدته ، وعفته وحبه وإباؤه ، ثم ما تبع ذلك من عادات وتقاليد عربية خالصة ، وهى فى نظر الأستاذ أحمد حسن الزيات إلياذة العرب بما تضمنته من جاذبية الأحداث وطلاوة العرض ، على أن من عيوبها - فى نظره - كملحمة ، ركاكة الأسلوب وبناؤها على حروب أهلية شبت بين شعب واحد[٢] ، ومن الحوادث البارزة فيها وصف مقتل عنترة ، وقد كان الشاعر الفرنسى الشهير « لامرتين » معجبًا به إعجابًا كبيرًا - كما سبق القول -

وقصة عنترة ، برغم ما فيها من حشو وتلفيق ومبالغات فى الخبر والوصف ، وبرغم اقتحامها النسائيات ، تعد أثرًا هامًّا من آثار ثقافة العرب ، وأسفارًا حفل بها الناس فى كل مكان ، وعدها الفرنجة من بدائع آداب العرب ، كما ترجموها إلى الألمانية والفرنسية[٣] . كما أن فيها من مظاهر البطولة والشهامة ، وأحاديث العزة والكرامة ما يحببها إلى كل الطبقات[٤] . وقد طبعت عدّة طبعات فى القاهرة وبيروت ، كما مثلت فى مسارح الشرق والغرب ، وظهرت على الشاشة البيضاء بمصر فى فيلمين هما « عنتر وعبلة » و « مغامرات عنتر وعبلة » ويحرص

---

(١) الأب لويس شيخو / شعراء النصرانية ، جـ ١ ص ٨٨٢ .

(٢) أحمد حسن الزيات / أصول الأدب ص ٤٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٣) الزركلى / الأعلام جـ ٢ ص ٧٤٤ .

(٤) محمد فهمى عبد اللطيف / أبو زيد الهلالى ص ٩٨ ، العدد ٤٧ من سلسلة « أقرأ » ففيها توضيح لمزايا أبطال العرب المشهورين ومقومات شهرتهم .

قارئو قصة عنترة على إلقائها بأسلوب حطابى منغَّم وأداء تمثيلى ، يحركون بهما عواطف الجماهير ، ويستثيرون مشاعرهم ويفتنون فى ذلك كثيرًا .

أورد إسكندر أغا إبيكاريوس فى كتابه « منية النفس فى أشعار عنتر عبس » القصة التالية التى تدل على مبلغ شغف العامة بسيرة عنترة :

« بلغنا عن رجل من أهل حمص كان يحضر كل ليلة إلى حلقة القصاص يسمع فصلا من قصة عنترة ، ففى إحدى الليالى تأخر فى حانوته إلى ما بعد المغرب ، فحضر إلى هناك بدون عشاء ، وكان فى تلك الليلة سياق حرب عنترة مع كسرى ، فقرأ القصاص إلى أن وقع عنترة فى الأسر عند الفرس فحبسوه ووضعوا القيد فى رجله ، وهناك قطع الكلام وأنفضت الناس ، فدخل على الرجل أمر عظيم ، واسودّت الدنيا فى عينيه ، وذهب إلى بيته حزينًا كئيبًا ، فقدمت له زوجته الطعام فرفس المائدة برجله ، فتكسرت الصحون ، وانصب ما فيها على فرش البيت ، وشتم المرأة شتمًا قبيحًا ، فصادمته فى الكلام فضربها ضربًا شديدًا ، وخرج يدور فى الأسواق وهو لا يقرُّ له قرار ، ثم غلب عليه الحال فذهب إلى بيت القصاص فوجده نائمًا فأيقظه وقال له : قد وضعت الرجل فى السجن مقيدًا ، وأنت مستريح البال فأرجوك أن تكمل لى هذا السياق إلى أن تخرجه من السجن ، فإننى لا أقدر أن أنام ولا يطيب عيشى ما دام على هذه الحال ، وانظر ما تجمعه من الجمهور فى ليلتك ، فأنا أعطيك إياه الآن ، فأخذ القصاص الكتاب وقرأ له باقى السياق إلى أن أخرج عنترة من السجن فقال له : أقر الله عينيك وأراح بالك ! الآن طابت نفسى وزالت همومى ، فخذ هذه الدراهم ولك الفضل . ثم انصرف إلى بيته مسرورًا وطلب الطعام ، واعتذر لزوجته بأن القصاص وضع له القيد فى رجل عنترة ، وهى جاءته بالطعام ليأكل فكيف يمكنه أن يذوق طعامًا وعنترة محبوس مقيد ؟ وقال : وأما الآن فقد ذهبت إلى بيت القصاص وقرأ لى الحديث إلى أن أخرجه من السجن والحمد لله ، فقد طابت نفسى فآتى ما عندك من الطعام واعذرينى عما فرط منى » .

وقد برزت قصة عنترة فى الجيل الذى ألف فيه كثير من كتب الأسمار والخرافات ، وقد أحصى محمد بن إسحاق النديم الكتب التى ألفت فى الأسمار الخرافية بالعربية فبلغت زهاء ثمانين ، وضعف ذلك أو يزيد ما ترجم عن الفارسية والهندية واليونانية ، وما روى عن ملوك بابل وذلك حتى سنة ٣٧٧ هـ[١] .

عنى بهذا القصة بعض المعاصرين ، ولعل من أبرزهم الأستاذ محمد فريد أبو حديد الذى حاول أن يظهرها - من جديد - فى ثوب شائق خلاب ورونق عصرى حديث ، فاقتبس من حوادثها متصرفًا فألف منها كتابه « أبا الفوارس » ثم كتابه الثانى الذى اختصره عن الأول

---

(١) ابن النديم / الفهرست ص ٤٢٢ و ٤٢٣ و ٤٢٤ و ٤٢٥ و ٤٢٦ و ٤٢٧ و ٤٢٨ وراجع التوجيه الأدبى ص ١٧ .

« عنترة بن شداد » وقد صدر جزءًا من سلسلة اقرأ التى تنشرها دار المعارف بمصر ، وهو عمل منه مشكور[١] . كما نشرت دار المعارف بمصر مختصرًا ، للقصة فى خمسة عشر جزءًا[٢] .

واستوحى القصة الأستاذ محمود تيمور مسرحيته « حواء الخالدة » .

على أنه حبذا لو هذبت قصة عنترة - على نطاق واسع - وتجرد لها بعض الكتّاب ليصوغوها فى أسلوب عصرى رصين ممتع تشوق الأديب قراءته ، على أن يحذفوا منها فضول القول ، وما لا داعى لذكره وإيراده من أخبار لا تمت إلى الواقع بآصرة ، كما أنه ليس فى بقائها وسردها ما يرضى نزعات الخيال السامى .. إنهم بذلك يقدمون إلى أدبنا خدمة جليلة ، وإلى العربية فصلًا بارعًا من ألوان الأدب القصصى تفخر به ذخرًا قيمًا ، وثروة أدبية طائلة .

وإن كان النثر قد احتفى بعنترة وخلّده ، وحفل بذكر بطولاته ومغامراته ، ووعى أشعاره وأخباره سواء فى القصص الشعبى أو فى أمهات كتب الأدب ، وخوالد السير وأيام العرب ، فإن الشعر كذلك قد احتفى أيما احتفاء بفارس بنى عبس وشاعرها المحلق ، فهذا شوقى يهدى العربية إحدى نفائسه الغرّ ، وروائعه الكبرى مسرحية « عنترة » الشعرية التى يقدم فيها لونًا شائقًا من ألوان القصص الشعرى الساحر الذى اشتهر به شوقى فى أواخر سنيه الحافلة ، مشيدًا بمناقب فارس بنى عبس الذائد عن حماها ، ومصوّرًا قصة غرامه أبرع تصوير وأشجاه فى بيان عبقرى خلال حسبه أنه بيان شوقى الشاعر الخالد[٣] .

وقد عنيت السينما كذلك برواية عنترة ، فأخرجت منذ بضعة عشر عامًا هذه القصة فى شريط سينمائى عرض على الجمهور فى القاهرة وغيرها بعنوان « عنتر وعبلة » كما أخرج منها شريط آخر عنوانه « مغامرات عنتر وعبلة » والأول منهما خير من الأخير من حيث دقة الإخراج وتسلسل الوقائع وتماسك حلقات الرواية .

كما ألف شكرى غانم (رواية تمثيلية) عن عنترة عرّبها إلياس أبو شبكة ونشرت ترجمة أبى شبكة فى بيروت ، كما نشرت ترجمة لها بقلم إلياس غالى ومراجعة صالح الأشتر .

---

(١) محمد فريق أبو حديد / أبو القواس وعنترة بن شداد من سلسلة « أقرأ » العدد ٤٣ .

(٢) حسن جوهر ومحمد أحمد برانق وأمين أحمد العطار / عنترة بن شداد نشر دار المعارف بالقاهرة .

(٣) أحمد شوقى / مسرحية عنترة الشعرية .

المضمون الشعبى لرواية عنترة*

تحكى رواية عنترة الشعبية مولد طفل فى بنى عبس لشداد بن قراد من أَمَة سوداء لبنى جديلة ، كانت ترعى قطيعًا من الإبل يقدر بألف ناقة ، فخرج عليها عشرة فرسان عبسيون ، فساقوا القطيع والأمة وولديها ؛ ولحق بهم أبطال بنى جديلة لتخليص النوق والسبية ، ودارت معركة بين الغزاة والنجدة ، أسفرت عن انتصار فرسان بنى عبس واحتفاظهم بالغنيمة .

وكان المألوف عند العرب فى الجاهلية أن تكون السبية مشاعًا بين الغزاة يطَئونها كلهم ، غير أن هذه الأمة « زبيبة » التى استسلمت لشداد باعتباره المالك لها ولولديها ، قد أبت على غيره من الغزاة أن ينال منها ما ناله شداد ، مما هو خليق بكرائم النساء ، فيعجب شداد بتصرفها ، ويعتبرها من نصيبه فى الغنيمة ، ويطلب من رفاقه عدم التعرض لها .

جاء عنترة نتيجة هذا اللقاء بين شداد وزبيبة ، فولد لأب ساميّ عربى أصيل ، ولأم حامية حبشية كريمة ، ولكنه جاء مختلفًا عن بقية الأطفال فى ضخامة خلقته ، وعبوس وجهه ، وتفلفل شعره ، وكبر شدقيه ، وصلابة عظامه ، وشدة منكبيه ، وشبه خلقته لخلقة أبيه شداد .

ويدرج المولود طفلًا ، وينمو صبيًّا قوى التكوين ، قد ورث عن أبيه السامى العربى الشجاعة والصلابة وقوة الجسم ، وورث عن أمه الحبشية ما عرف عن الحاميين من الجَلَد وقوة الاحتمال ، وسعة الحيلة والمراوغة ، وحسن التبصر ، فيستطيع فى يفاعه أن يقتل ذئبًا يأتى برأسه ، كما يستطيع « شيبوب » أخوه لأمه أن يمسك ثعلبًا يجىء به بين الخرفان ، الأمر الذى أثار إعجاب شداد فأوصى أمهما بهما ، وخص عنترة بتوصيته ، ثم يمضى الزمن بعنترة فيبدو شهمًا مدافعًا عن الضعفاء ، حاميًا للنساء ، ويتصدى لداجى أحد عبيد « شاس بن الملك زهير » لمنعه النساء من ورود الماء قبل أن يصدر أتباع سيده « شاس » ، فيلطم العبد الضخم الكبير عنترةَ الصبىَّ الصغير لطمة تغيبه عن الصواب ، ثم يفيق عنترة فيهجم على العبد ويقتله بيده ، وتتجمع عليه العبيد فيفرقهم بعصا خطفها من أحدهم ، ويشاهد الأمير مالك بن زهير هذا المنظر فيعجب بعنترة ، ويخلصه من العبيد ويجيره لقتله « داجى » .

ثم يقتل عنترة أحد عبيد « الربيع بن زياد » الذى يعتبر من أبرز رجالات قبيلة عبس ومستشارى الملك ، لأنه دس عليه عند أبيه فضربه وشد وثاقه ، فلما تخلص عنترة من قيده ،

---

* أعتمد فى التلخيص على السيرة الحجازية ، الطبعة الرابعة طبعة المكتبة السعيدية سنة ١٣٣١ هـ .

بحث عن العبد فقتله ، وقصد مالك بن زهير فأجاره مرة أخرى ، وبهذا الحادث يظهر العداء بين عنترة والربيع ، ويخشى العبيد بأس عنترة ، وتزداد مكانته عند الأمير مالك بن زهير .

ثم يبدو لشداد وإخوته أعمام عنترة أن يتخلصوا منه بخشية فوران الفتن بين أفراد القبيلة ، فيطلعوا عليه فى الصحراء فيجدونه يتصارع مع أسد فيظنون أن الأسد سيكفيهم مؤونة قتله ، ولكن عنترة يرمى بسيفه ويصارع الأسد أعزلاً فيصرعه ، ويسلخه ويشوى لحمه ويأكله ، وأبوه وأعمامه يتفرجون ، فيقول عمه « زخمة الجواد » : « والله من يكون له مثل هذا ويفرط فيه فلا يكون عاقلاً » !

ويهاجم فرسان من غطفان ديار بنى عبس ، بينما شداد وإخوته ورجال الحى خارج الديار فى إحدى غزواتهم ، وليس فيها غير النساء يحرسهم العبيد ومنهم عنترة الصبى ، الذى لم يكن يتجاوز الأربعة عشر عامًا ، فيتصدى للمعتدين ويقاتلهم ويهزمهم ويسترد الأسلاب وينقذ النساء .

وتشير الرواية إلى العُقَد التى أقلقت نفسه ، وشغلت باله بسبب الأوضاع الاجتماعية السائدة فى جزيرة العرب فى الجاهلية ، نتيجة العرف المؤدى إلى التفرقة العنصرية ، فقد ولد عنترة من أمة سوداء ، والمجتمع العربى لا يعترف بأولاد الإماء أحرارًا ، ولو كانوا من صلب من أكرم العرب أصالة وقدرًا ؛ ومن هنا نشأت فى نفس عنترة عقدة النسب .

وولد عنترة أسود اللون ، ضخم الجثة ، كبير الشدقين ، مفلفل الشعر ، والسواد سمة للعبيد يوحى باحتقار شأنهم ، فترعرعت فى نفس عنترة عُقْدة اللون .

ولم يكن العرف يسمح لأولاد الإماء بممارسة الأعمال التى يمارسها الأبناء المعمون المخولون ، بل كانوا يستخدمون فى رعى الإبل وخدمة النساء والأعمال الوضعية ، فنمت فى نفس عنترة عقدة العبودية .

ويحب عنترة عبلة ابنة عمه « مالك » ويفرى الحب قلبه ، ولكنه يتكتم ذلك إلى حين ، فقد كان العبيد محرومين كذلك من الاتصال بكريمات النساء والحرائر منهن ، بل كان ذلك من حق السادة البيض المنسَّبين فحسب ، وكان عنترة ولهان فى حب ابنة عمه « عبلة » ، بينما تمنعه هذه القيود من الزواج بها ، فأصيب بعقدة المجتمع .

فهل يستسلم عنترة لواقعه المؤلم ؟ وهل يرضخ لمجتمعه الظالم ؟ وهل ينهزم أمام هذه العقد النفسية العديدة ليعيش على هامش الحياة ؟ .. كلا ، فإن الصفات الموروثة عن أبيه السامى العربى شداد العبسى ، والصفات الموروثة عن أمه الحامية زبيبة الحبشية ، قد دفعته دفعاً إلى التخلص من رق العبودية ، وسيرته تسييراً فى سبيل حل جميع عُقَده النفسية ، بل إن ما أودعه الله من استعداد فطرى ، وشجاعة خارقة ، وقلب رحيم كل أولئك كان سبباً لتسنمه ذُرا الزعامة الحربية والاجتماعية والأدبية معاً .. فما الذى عمله عنترة للتخلص من تلك القيود ؟

وما الذى صنعه لحل تلك العقد ؟ وما الذى فعله لصعود تلك الذرا حتى أصبح حديثاً يروى ، وقصة تحكى ، وأسطورة تقرأ ، وملحمة يتغنى بها ؟!

لم يجد عنترة سبيلا لنيل أوطاره ومآربه غير سبيل النضال والكفاح ، يثبت به أهميته ،ويعبر به عن شخصيته وما تضمنته من ضروب العزة والشهامة والقدرة الفائقة على مقارعة الخصوم .

وبما أن عبساً قبيلة من أشد قبائل العرب المحاربة ، كما أنها تعد من القبائل الغنية ، فإن أموالها ومواشيها دائماً تطمع فيها الغزاة ، ولذلك فإن الغارات عليها كانت تتوالى وتتابع لا سيما فى غيبة رجالها منشغلين بالغزو ، فيجد « عنترة » فى غيبة الفرسان فرصة لاستعراض شجاعته وهمته ، فنراه يردّ دائماً كل المعتدين والمغيرين ، ويكبدهم الخسائر الفادحة ، ويوقع بهم أشد وقيعة .. ومن ثم فإن انتصاراته هذه تكسبه احترام القبيلة نساء ورجالا ، وتؤرث فى نفوس البعض أيضاً حسداً له وبغضاً ، كالأمير شاس الذى قتل عنترة أحد عبيده ، وكذلك الربيع بن زياد ، وأخيه عمارة منافس عنترة فى حب عبلة والرغبة فى زواجها .

على أن هذه الانتصارات المبدئية لم تستطع أن تجعل أباه شداداً يجتاز الحرج ليستلحقه بنسبه ، كما أن « عبلة » برغم حبها له ترى أن عنترة إن لم ينسَّب فإن من غير الطبيعى أن يناالها .

وحين يطلب عنترة من أبيه فى إحدى المرات أن يستلحقه بنسبه ، نجد الأب ينفعل غاضباً على عنترة ، ثم يطرده فيهيم على وجهه ، فيلتقى بأحد الفرسان الصعاليك . وهو عياض بن ناشب وجماعته ، فيغزو معهم ، ولكنهم يحاولون أن يبخسوه حقه فى الغنيمة لأن نصيب العبد عادة غير نصيب الحر ، حيث إنه لا يكسب غير ربع سهم ، وهم يحاولون تكريمه بإعطائه النصف فيأبى ، فيقبلون على مضض ويكلفونه بسوق الغنيمة احتقاراً له ، فيسير بها وهو غضبان ، وهناك يلتقى بالحارث اليشكرى الذى يركب حصاناً مشهوراً هو « الأبجر » وتتم مساومة بينهما على أن يسترد الحارث أسرى بنى قحطان وأموالهم ، وعوضاً عن ذلك يأخذ عنترة « الأبجر » ، وعندما يلتقى بعياض وجماعته وقد أفلتت الغنيمة يهاجمونه فيصمد لهم فيخافونه ويلاينونه .. وتتكرر الأحداث بعد ذلك ، وتأخذ مجرى واحداً هو أن « بنى عبس » يقعون دائماً فى مآزق حرجة ولا ينقذهم منها سوى « عنترة » . ويتنافس عنترة و « عمارة » على الزواج من عبلة ، ولكن عبودية عنترة تجعله دائماً فى موقف مخذول أمام عمارة ، حتى إن أبا عبلة يلطم عنترة مرة حينما اعترض طريق عمّارة ، وتتفاقم الفتنة فى القبيلة حتى يتدخل فيها الملك زهير ، فيخلع عنترة ثياب الفرسان ويعود لرعى الغنم .

ثم تخرج القبيلة فى غزوة تاركة بعض الفرسان لحماية الحى ، فيهاجمهم عدد كبير من الفرسان ، ولا يجدون خلاصاً إلا فى نصرة عنترة لهم ، ولكنه يأبى أن يترك مكانه إلا بعد أن

يستلحقه أبوه بنسبه ، فيجاب إلى ما طلب ، ويشهد الناس على أنه من ولد شداد ، فيسرع إلى كشف الغمة عنهم ، ويوافق عمه مالك فى حمى القتال على زواجه من عبلة .. ولكن العم يلجأ فيها بعد إلى الحيلة ، ويطلب ألفاً من النوق العصافير - مهراً لابنته - وهى لا توجد إلا عند الملك النعمان ، ويذهب عنترة إلى الملك النعمان ، ثم إلى بلاط كسرى ، وتجرى بينه وبين الآخرين معارك ينتصر فيها ويعود بالنوق ، وأثناء عودته يقابل « عبلة » وسط الصحراء ، وهى تبكى لأن فارساً من بنى كنانة أسر أباها وأخاها وطلب منهما زواجه بها مقابل إطلاق سراحهما ، وعندما كانا يحملانها إليه خرج إليه عبد من بنى الريان فقتل الكنانى وأسر مالكاً وابنه ، وطمع بها فيخلصهما ، ولكن المناوئين له يرفضون حقه فى ابنة عمه ، ويخرج عنترة من ديار بنى عبس غاضباً مقرراً ألا يعود ، ويفرح بنو عبس لهذه الهجرة ، ويستعد مالك لزفاف ابنته من « عمارة » يؤيده الأمير شاس الذى يقع فى الأسر فى إحدى الغزوات ، ويخلصه عنترة ويعود به إلى بنى عبس ، فيكون عوناً له على عمه مالك ليزوجه عبلة ، ولكنه يطلب من عنترة أن يأتيه بفارسة مشهورة تدعى « الجيداء ابنة زاهر » لتقود ناقة عبلة عند الزفاف ، ويأسر عنترة الجيداء .. وبعد فترة تقع عبلة فى أسر « بسطام » فارس بنى شيبان . فيأسره عنترة ويسير به إلى دياره لتخليص عبلة ، ولكنه يجد أن بنى شيبان وقعوا فى أسر فارس جبار فيتحالف مع بسطام ، ويخلصون عبلة وأخت بسطام من أسره .. وتزداد شهرة عنترة ، ولكن عمه مالك يرفض زواجه من ابنته ، ويحاول الربيع وعمارة قتل عبلة بعد أن عجزا عن قتل عنترة ، ويستأجران عبداً من بنى فزارة لهذا الغرض ، وتدور المعارك بين بنى عبس وبنى فزارة ، ويأسر عنترة الربيع وعمارة ويحملهما إلى الملك زهير ، ولكن الفتنة تقع فى بطون بنى عبس ويتفرقون ، بينما يرسل الملك النعمان أخاه الملك الأسود لقتل عنترة ، إلا أن عنترة يقضى على جيشه ويأسره ، ويثبت عجز النعمان فيعزله كسرى ويولى مكانه أخاه الملك الأسود . ثم تجتمع جيوش العجم وجيوش العراق بقيادة الملك الأسود لمهاجمة عنترة ، وتصبح المعركة بين العرب والعجم ، وينضم إلى عنترة فرسان العرب أمثال دريد بن الصمة ، وينتصر العرب ويعود النعمان إلى ملكه ... وبعد أن يموت الملك زهير يتولى مكانه ابنه قيس الذى تربطه صلة النسب بالربيع وبنى زياد ، وبعد أن يقتل بنو فزارة الأمير مالك بن زهير يقضى عليهم بنو عبس ، وتستقر الأمور لفترة وتبدأ القبيلة تستعد لزفافه على عبلة ، ويتم الزواج بعد هذا النضال الطويل !

ويبدأ عنترة أولى رحلاته بعد الزواج ليعيد إلى صديقه الفارس مقرى الوحش حبيبته مسيكة من بلاد الشام ، وما إن يعود إلى بنى عبس حتى يجد الديار خالية ، فقد عرف النعمان بهلاك بنى فزارة فأرسل جيشه ليقضى على بنى عبس ، أما قيس وقبيلته فقد هربوا إلى الجبال ولحقهم عنترة ، وأخذ النعمان يؤلب القبائل المجاورة لهم ، ويستمر بنو عبس فى هروبهم من

وجه النعمان إلى أن يجاوروا قبيلة بنى سعد ، وكان لهم فارس مشهور هو معاوية بن النزال الذى يحاول اختطاف عبلة ، فتقع المعارك وتنتصر بنى عبس وتستمر فى الزحف حتى تصل إلى نهاية بلاد اليمن ، وعندما تتحد ملوك اليمن وتتآزر لحرب بنى عبس يصل الملك « عمرو بن هند » أخو النعمان فى جيش كبير ، وقد جاء ليرد غربة بنى عبس بعد أن استطاعت المتجردة زوجة النعمان إقناعه ويعود الجميع ، ويتعرض لهم الفارس الجبار ذو الخمار ، ولكنه ينهزم ويتلوه عدد من الفرسان يبارزهم عنترة ، وتنتهى المبارزة بالصلح أو انتصار عنترة ، ويرسل الحارث بن الوهاب ملك الشام جيشاً ليقتص من عنترة الذى قتل ابنه ، فيجتمع بنو عبس وبنو غطفان وتبدأ المعارك بين العرب والنصارى ، ويتمكن جيش النصارى من أسر فرسان بنى عبس بما فيهم عنترة ، ولكنهم ينتصرون بحيلة من ملكهم قيس .

ويتفق ذو الخمار مع فارسة تدعى غمرة للقضاء على فرسان بنى عبس ، وتلتقى بعنترة ويستمر القتال بينهما طوال الليل والنهار الذى يليه ويأسرها .. ويحاول كسرى السير بنفسه إلى بلاد العرب للقضاء على فرسانهم الأقيال ، ويقع عنترة وعبلة فى الأسر ، وينقلان إلى عاصمة كسرى ، وهناك تستحوذ عبلة على عقل « أردشير بن كسرى » فيظل يحتال عليها إلى أن تقتله ، إلا أن الملك قباز – أخا أردشير – يحميها من الانتقام طمعاً فى ملك أبيه ، ويطلق سراح عنترة ورجاله وتنتهى المعركة بين الفرس والعرب .

ويدس الربيع عند عبلة ، فتجمع صويحباتها فى ليلة ويسكرن عنترة حتى يفقد صوابه ، عندئذ تحاول عبلة إظهار دالتها عليه فتطلب منه أن يقبل قدمها أمام الجميع ، فيغضب ويترك الديار مع أخيه شيبوب .. وبعد تجوال يلتقى بنادبات بنى عبس يندبن أسر ولديه « ميسرة وغصوب » اللذين هاجمهما ذو الخمار مع صديقه جبار بن صخر الإسرائيلى وأسرهما ، ويلتقى عنترة بيهودى يعده بتخليص ابنيه ولكنه يغدر به بالاتفاق مع قائد حصن خيبر ، ويقع عنترة فى الأسر .. ثم يتمكن من الخلاص بواسطة ولده غصوب ، ويقاتل عنترة اليهودى وذا الخمار ، فيهرب ذو الخمار ولكنه يقع فى الأسر ويقتل صاحبه اليهودى ! ويلتقى عنترة بالفارس ربيعة بن مكدم ، ويكسر سيف ربيعة ولكن عنترة يعطيه سيفاً آخر فيتفقان على الصلح ، ثم يقتل ربيعة غدراً من فارس يدعى نبيشة ، ولكن عنترة يأخذ بثأره ويقتل نبيشة على قبره .

ويقع عداء بين أبناء عنترة والفارس عبد هياف الذى يستنجد بملك الهند فيرسل جنوده نحو الجزيرة العربية ، ويجتمع العرب لقتالهم وتدور المعارك ، ويقع عنترة جريحاً ويأخذه بعض العرب ويعالجونه ، ثم يظهر مرة أخرى ويقتل ملك الهند ، ويصل بعد ذلك جيش من الحبشة ، وتدور معارك تنتهى بقتل قائدهم ويتبعهم عنترة إلى الحبشة والسودان ، ثم يعود ليجد أن المستوعر بن ربيعة البارقى قد أنزل قصيدته من مكانها فى الكعبة ، وهى التى كانت قد علقت

فى حفل مشهود فيذهب إليه ويقتله ، ويعيد القصيدة إلى مكانها فى حفل كبير دعى إليه جميع قبائل العرب .

وعندما يقتل ابنه الغضبان على يد بعض فرسان الجان ، يعيش عنترة فى بيت خاص أسماه « بيت الأحزان » حيث يقصده الأصدقاء معزين فى ولده .. ويعلم عنترة أن فارساً اسمه وَزَر بن جابر ويلقب بالأسد الرهيص ، هزم جميع الفرسان وسبى أخت عمرو بن معد يكرب وتزوجها ، وجعل من كبش له رسولا عند القبائل يدفعون له الجزية .. ويقوم عنترة بأسره مع قومه ولكنه يطلق سراح زوجته إكراماً لأخيها بتوسيطه عند صديقه عنترة ، فيطلق سراح زوجها ، ولكن وَزَراً يسير وفى قلبه حقد أسود ، وينتهز فرصة خروج عنترة فى إحدى غزواته ، فيهجم على ديار عبس ويأسر فرسانهم ، ولكن عنترة يعود فيأسر الأسد الرهيص ، ويطلقه مرة أخرى إكراماً لعمرو ، ولكنه يحاول تجميع القبائل المعادية من جديد ، ويشهر حرباً ثالثة وفى المعركة يأسره عنترة للمرة الثالثة ، ويكحل عينيه برمح محمى ويطلق سراحه !

ويغدر بنو فزارة بغصوب بن عنترة ويقتلونه ، ويتعقبهم عنترة ويأسر منهم عدداً ينحرهم على قبر ابنه ، غير أن بعضاً منهم يلجئون إلى الملك الأسود الذى يطلب من الملك قيس بن زهير إرسال عنترة إليه ، ويحاول قيس أن يدبر مؤامرة لأسر عنترة ، ولكنه يكشف أمرها فيقتل المتآمرين ويرحل عن عبس مغضباً ، ويسير إلى الملك الأسود للانتقام منه ، فيسرع باستدعاء ذى الخمار ، وتدور معركة رهيبة يأسره فيها ، ثم يتصالح معه ويهزمان جيش الملك الأسود .

وتحل بعنترة كارثة بفقد أخيه مازن وصديقه « عروة بن الورد » ، فينتقم لهما ويلزم « بيت الأحزان » من جديد .. ويكون لذلك أثره على القبيلة ، فيقل مالها ، فيخرج عنترة مع بعض الفرسان فى غزاة ، ويأخذون عروساً من بنى طيىء كانت تزف إلى فارس من بنى كندة ، ويخشى الملك قيس أن تجتمع عليها القبيلتان ، فيطلب من عنترة إعادة العروس والأسلاب ولكن عنترة يرفض ، ثم يقرر الرحيل نهائيا ويسير قاصدا « دمشق » عند الحارث بن وهاب ، ويبلغ قيصرا مايفعله عنترة فيستدعيه ويحارب معه أعداءه ثم يعود إلى بلاده ، فيحاول الربيع وعمارة تدبير مكيدة جديدة للإيقاع به ، إلا أنه ينجو بفضل صديقه « عمرو ذو الكلب » فيقتلهما ويهول الأمر عبساً فيهجرهم ويذهب إلى بلاد الروم ليقاتل بعض أعداء قيصر ، وفى طريق عودته يكمن له عدوه العتيد الأسد الرهيص عند أحد الغدران ، ويصوب إليه سهماً مسموماً يصيبه فى خصيته ، وكان قد أمضى فترة طويلة فى التمرن عليه ، ويكون ذلك سبباً فى وفاة عنترة ، وبذلك تنتهى حياته المديدة الحافلة !

وبانهيار هذا الطود ، وتحطم هذا الصرح ، ينهار ويتحطم بالتالى كيان أسرة عنترة . فهذه

« عبلة » التى انتصحت بنصيحته تتزوج « عامر بن الطفيل ، الذى يحاول أن يحسن معاشرتها ، ولكنها تكيده وتغيظه وتذكره كل حين بالفارق الكبير بينه وبين عنترة ، شأنها فى ذلك شأن كل المردفات من حرائر العرب منذ الجاهلية وفى عهد الإسلام ، حيث صرخت مرة زوج سعد بن أبى وقاص التى كانت قبله تحت المثنى بن حارثة الشيبانى وهى تشهد إحدى المعارك وسعد مريض فى البيت : « وامثنياه .. ولا مثنى للخيل اليوم ! » فصفعها سعد رضى الله عنه فردت عليه : أجبن وخسة ؟ .. كما كانت فاتنة قريش « عائشة بنت طلحة » تذكر دائماً لزوجها « عبد الله بن معمر » محاسن زوجها السابق مصعب بن الزبير وتقول له : « ما كان أحلى الغبار على وجه مصعب وهو يعود إلى من صيد أو غزاة » ، فكان عبد الله يشعر بغيظ قاتل لا مهرب له منه .

على أن « عامر بن الطفيل » لم يطق صبراً على ضروب الهوان من زوجته ، ففى أحد المواقف التى تفاقم فيها غيظه لم يجد بداً من قتلها ، وحينما جاء أخوها وأبوها يسائلانه ويتطلبان الثأر ألحقهما بها .

وكما تداعت أركان الأسرة . فإن التضعضع انتاب القبيلة بدورها ، فقد ألب عليها بنو فزارة القبائل حتى فنى معظمها وتاه – كما تقول الرواية – عظيمها ومليكها « قيس بن زهير » فى غمار صحراء الجزيرة طريداً حائراً تائهاً فى بيداء غير ذات حدود .

تلك قطوف بتراء معجلة ، مما تضمنته رواية عنترة الشعبية ، التى لم ينس كاتبها أن يضمنها أشعاراً كثيرة منسوبة إلى عنترة [١] .

---

(١) يرى الأستاذ أحمد رشدى صالح فى كتابه « فنون الأدب الشعبى » أن سيرة عنترة إحدى ملاحم البطولة والفروسية التقت فيها تأثيرات العالم الإسلامى المختلفة (راجع فنون الأدب الشعبى جـ ٢ ص ٦٧) .